

مُشكلة «الحرية» عند سارتر

أ. نعيم ايريس مورديخ
أ. نعيم محمود رجب



(ان نفهم شيئاً عن سارتر معناه ان نفهم شيئاً عن العصر الحاضر . فمن حيث هو فيلسوف، ومن حيث هو سياسي، ومن حيث هو روائي نجد معاصراً لنا ، يعايشنا بعمق . ان سارتر ليملك بحق أسلوب العصر) .

ايريس مورديخ

دائم ومحسوس به . ودانيال يشبه روكانتان ويختلف عن باقي شخصيات «دروب الحرية» من حيث انه يرى الحياة، لا على أنها بحث عن صنوف من الغايات الانسانية، وانما على أنها مشروع وحيد قد يتغير مضمونه لكن صورته لن تتغير ابداً، ذلك ان قد افضت بحياته الى نوع من التنبه اي بناء معين دائم هو ذلك المشروع الوحيد . وبينما نجد «روكانتان» وسط المادة الخام للكشف الميتافيزيقي يقوم بتحليل فلسفي غامض، نجد «دانيال» يقوم بنفس الكشف ولكنه ليس كشفاً ميتافيزيقياً، وانما هو اشبه ما يكون بالعصاب النفسي Neurosis . ان دانيال هو روكانتان، حل الوسواس النفسي والرغبة في التحليل النفسي عنده محل التعطش الميتافيزيقي والتحليل الفلسفي اللذين كانا عند روكانتان . فقصه دانيال تقرأ اذن وكأنها تاريخ حالة فرويدية أكثر مما تقرأ وكأنها مقالة ميتافيزيقية .

يرغب دانيال في « أن يكون لوطياً، مثلما تكون شجرة البلوط شجرة بلوط » . ومع ذلك فليس في مقدوره أن يعاني خبرة المواجهة الصريحة لخطئته، مفضلاً البقاء منفصلاً عنها، وان يكون مجرد ملاحظ من بعيد، أن يكون امكانية محضة، بل ان محاولاته لتحقيق هذه المواجهة تتخذ صورة العقاب الذاتي، ذلك انه يأمل انه بهذه الوسائل يستطيع ان يحقق توحداً ذاتياً حاداً بين العذب والمعدب داخل نفسه . هذا النوع من الانتحار التدريجي سيكون في نفس الوقت تجلياً ومظهراً للحرية، لان فعل ما هو نقيض لما يريد المرء هو الحرية، كما يحدث نفسه وماتيو . والحزبية أيضاً هي المواجهة الذاتية للوعي المنزلق، السيلاب أبداً، حتى ولو للحظة قصيرة . بناء على هذا يستطيع المرء ان يريد تحوله الى شيء، وهو في نفس الوقت مجرد لحظة متوترة من الالم . وهذا امر مفارق، أشكالي . فدانيال اذن يجد حريته في نقيضها .

ومع ذلك فان محاولاته في التعذيب الذاتي تخيب ظنه . فهو لا يقدر على اغراق قطعه . وهو يتزوج مارسيل التي تحتقره، ثم يجد أن الزواج امر مزعج احتمالاً . ومن اجل البحث عن شاهد قد يستشعر امامه الخزي السار نتيجة كونه مشاهداً كموضوع محقر، اختار ماتيو كي يجعله شاهداً لاعتراقاته، لكن ماتيو معقول أكثر من اللازم، ومتساهل في ان يكون شاهداً مناسباً . بعد ذلك يجد دانيال حلاً افضل من الخبرة الدينية . وفجأة امتلاً بيقين هو ان الله يراه . ها هو ذا يجد أخيراً الشاهد الذي

« دروب الحرية » (1) قصة ضخمة لسارتر تتكون من أربع روايات : سن الرشد ووقف التنفيذ والحزن العميق والعرضة الاخيرة . ورواية سن الرشد تهتم أساساً ببحث البطل ماتيو عن النقود التي يدفعها ثمناً لاجهاض عشيقته مارسيل . وقد وقعت أحداثها سنة 1938 . أما رواية « وقف التنفيذ » فهي عن أزمة ميونيخ، ورواية « الحزن العميق » عن سقوط فرنسا . وتتبع القصة - التي تصور نفس مجموعة الشخصيات - خطاً مستقيماً خلال الكتب الثلاثة (2) .

و « دروب الحرية » دراسة للطرق المختلفة التي يسلكها الناس في اثبات أو انكار حريتهم في ذلك السعي الدائب نحو كمال الوجود الثابت، ونحو الثقة بالذات، وهو السعي الذي قال عنه سارتر في « الوجود والعدم » انه مميز للوعي الانساني، والذي صورته في « الغثيان » . غير اننا في قصة « الغثيان » نشاهد بطريقة مجردة، الصورة الفارغة للمشروع الانساني، كما لو كان معلقاً في الهواء، في حين ان قصة « دروب الحرية » تجعلنا نشاهد بطريقة شخصية صنوفاً من الطرق التي يسلكها اناس مختلفون في تحقيق هذا المشروع الانساني تحقيقاً واقعياً . ان سارتر ليدرر بافاضة ما يعتقد انه نماذج رئيسية لثلاثة للوعي : العاقل (ماتيو) والمجد (دانيال) والشيعوي (برونيه) . ويقدم أيضاً نخبة من الشخصيات الثانوية التي احللت ووضعت في مكانها المناسب .

ان أبسط الحالات الرئيسية الثلاث هي حالة دانيال . فدانيال، مثل روكانتان، بطل قصة « الغثيان » منزعج من انزلاق وجوده الخاص، منشغل البال برغبة من شأنها ان تحول لا وجود وعيه الى وجود ثابت صلب مثل وجود الشيء . وهو ميل - ان كان وصف سارتر له هو الوصف المناسب فنحن نشاركه فيه - موجود عند دانيال كاهتمام

(1) هذه ترجمة للفصل الثاني من كتاب « سارتر الفيلسوف الرومنطقي العقلي » Iris Murdoch القصاصة ومدرسة الفلسفة بجامعة أكسفورد .

(2) ستهتم ايريس مورديخ بتحليل الاجزاء الثلاثة الاولى من «دروب الحرية»، مهمة الجزء الرابع لانه لم يترجم الى الانجليزية حتى وقت صدور كتابها سنة 1952 . وجدير بالذكر ان الترجمة العربية قد ظهرت عن دار الاداب . ترجمة الدكتور سهيل ادريس .

• العضو البسيط الدغماتي (القطعي) فالكون عنده هو كمال التحليل الماركسي عنه ، ولا قول غير هذا القول ، بل ان برويه نفسه وسينه للحزب حدد التاريخ وطبقته في الحياة . لا يفكر كثيرا في هذه الاشياء ، انه يعمل . حتى انه لم يتمهل ليراجع او ليفحص دوافعه الخاصة التي دفعته لان يوجد في الحزب ، « أنا شيوعي لانني شيوعي » ؛ هذا كل ما في الامر » . وبرويه الذي كان تطوره الاخير مهما جدا ، يظل مع ذلك ، خلال الجزء الاول من « دروب الحرية » شخصية هزيلة ، وان كان المؤلف قد احبه واحترمه بوضوح ظاهر .

ومحور الاجزاء الثلاثة هو ماتيو ، وهو اكثر ملاحظتي التحليل النفسي اتساعا في استبطانه الذاتي ، ومن خلاله تحكى القصة . وليس هناك شك في انها صورة سارتر نفسه . يقف ماتيو بين طبيعة دانيال الملحدة والساقطة عن نعمة وبين طبيعة برويه الساذجة بل المترنمة ببساطة . وكل من هاتين الشخصيتين تحاول « اغواء » ماتيو بطرق نموذجية ، فدانيال يغويه بمنظر الفعل المجاني (الحر) Acte gratuit ، وبرويه بالالتزام المحكم ، عندما يقترح دانيال على ماتيو ان يتزوج من مارسيل فليس معنى ذلك انه يسيء الى صديقه فقط ، بل يقدم اليه كذلك برناه للخلع من نوع من الفعل قد حاول هو نفسه انجازها (محاولة اغراق قططه) والذي انجزه فعلا فيما بعد (بزواجه من مارسيل) . « لا بد وان يكون من السار للمراء ان يفعل عن عمد نقيض ما يريد . فالراء عندئذ يشعر بنفسه وقد صار شخصا اخر » . هذا من ناحية دانيال ، اما من ناحية برويه فانه يملك ايضا برناه لما اتيو للانضمام الى الحزب الشيوعي . « لقد تبذت كل شيء لكي تكون حرا ، فلتتخذ خطوة اخرى . انبذ حريتك نفسها وسوف يعود اليك كل شيء افتقدته » .

مهما يكن من شيء فان ماتيو لم يتبع نصيحة أي منهما ، ذلك انه مشاغل بمعقوليته المتزايدة ، فليس هناك سبب معقول لان يذهب الى الاسبانيا او ان يتزوج مارسيل او ان ينضم الى الحزب الشيوعي . بالنسبة له . لكي يكون قادرا على التقرير في هذه الامور فلا بد ان يتغير تغيرا يشمل نخاع عظمه . انه مجرد فكر فارغ يتأمل نفسه . والان في حياته المعقولة اكثر من اللازم يوجد تصميم لا يمكن استرداده : « نتائج افعالي سلبت مني » . وعندما يقوم بفعل فانه مثل فعل هامات ، يأتي عفو الساعة ، وبدون اسباب . يفرز السكين في يده ليجعل ايفيش مسرورة ، ويفتح فمه يقول لمارسيل : « احبك » ، فيقول : « لا احبك » . يخبر بينيت ان المقاومة امر فارغ من المعنى ، وبعدئذ يأخذ بندقيته . ويطلق الرصاص .

بلغت قصة ماتيو قمتها في الجزء الثالث ، فماتيو جندي من جيش فرنسا المهزومة ، التي تنتظر غزو الالمان بعدما تخلى عنها ضباطها . ان وصف هذه الفترة الغريبة - حيث يوجد الاثم والبراءة معا وبدون توقع - ليحقق نوعا من الشعور لا يظهر في مكان اخر من دروب الحرية . وان عمقا ولطفا غريبين لينتظران الجنود وهم يتجولون ، متسما كل منهم للاخر . يأخذ ماتيو في التفكير ، هذه هي فردوس الياس . ويتعجب عندما يحييه بعض الغريب بلطف « هل من الضروري ان يفقد الناس كل شيء ، حتى الامل ، بدلا من ان يستطيع المراء ان يقرأ في عيونهم امكانية ان ينتصر الانسان ؟ » . هنا تختلط الفلسفة بالصورة التي كونتها القصة اختلاطا كليا . ولم تعد تبدو تأملات ماتيو

تتجسد امامه خطاياه تتجسدا حقيقيا وتتصلب . تصلب الاشياء عندما توجه اليها نظره الله الناهمه . لكن هذا ، كما هو واضح ، ليس باثر من جانب واحد من جوانب بحثه الذي ينتهي . ففي الجزء الثالث من « دروب الحرية » (عند سقوط فرنسا) نجده يقابل ما يبدو له انه زميل سهل ، انه الصبي ، المعذب لنفسه دائما . فيايب ، والذي صور بدفه من فكره سارتر عن بودلير ، وهي فكرة عرضها في دراسته عن الشاعر ، وهي دراسة استخدم فيها منهج « التحليل النفسي الوجودي » ، يضاجع دانيال الصبي ويستعد كل منهما للعمل المشترك .

هذه الدراسات دفيقه ووفيه . لا شك ان سارتر عالم بما هو شاد ، لكن اهتمامه عندئذ ليس بالضرورة اهتماما سوداويا ، ذلك ان سارتر مثل فرويد ، يجد فيما هو شاد الصور المبالغ فيها لما هو سوي . فتخصياته القاتمة الى ابعد الحدود نربنا ، سواء بالتحليل المباشر (دانيال) او بالرمز (شارل) شيئا من القرف الذاتي تعانیه الروح الانسانية في مواجهه الحرية . يستخدم سارتر - مثله في ذلك مثل فرويد ايضا - الميتولوجيا او صورة العقل التي على اساسها قد توصف حاله الفرد . لكنه من حيث هو محلل نفسي فقد ظل ديكارتيا في عناد . ففي « نظريته الانفعالات » يكتب قائلا : « ان التناقض العميق في التحليل النفسي كله هو انه يقدم درة واحدة علاقة السببية وعلاوة التضمن Compréhension بين الظواهر التي يدرسها » . ويقول ان ما يحدث في الوعي يتلقى تفسيره من الوعي فقط (لا من اللاوعي) . فالشعور النفسي لا بد وان يفهم حدود اختيار الفرد الخاص لضرب معين من ضروب امتلاك العالم وتمثله ، وان يفهم في حدود رمزيته الخاصة التي اختارها اختيارا هادفا .

وعلى هذا فلئن يقول احد اتباع فرويد ان شعاع دانيال بالذنب من نزعة الجنسية المثلية Homosexuality هي التي تصيب عقابه لذاته ، فان سارتر يضع الامر على اساس اخر هو مشروع دانيال ، شبه المتعمد الذي رسمه . وعلى اساس حزب حياته الذي اختاره . ان ما تم اختياره شيء يحققه دانيال . والتحقق جزء مميز لذنبه . ان الفرد هو الحكم الاخير فيما يقول سارتر . وهذا ما يدركه المحال النفسي العملي ادراكا جيدا ، على الرغم من انه يميل الى نسيان ذلك اذا ما دخل الى مجال استخلاص النظريات من دراسته العملية . بناء على ذلك يعارض سارتر فكرة العقل اللاواعي ، لكن عنده البديل عن هذا في فكرة الخداع الذاتي Self - deception نصف الواعي ، اللاتاملي ، والذي يسميه « الايمان الزائف » . وسارتر من حيث هو ميتافيزيقي ، ومن حيث هو اخلاقي ومن حيث هو محلل نفسي يعمل بنفس الأدوات ، فصورة واحدة للعقل تخدمه في كل مجالاته ، ذلك انه ما دامت الحرية امرا اساسيا فليس هناك صدام بين التحليل النفسي والنزعة الاخلاقية . وما دامت الميتافيزيقا تدرس بناء خبرتنا عن العالم فلسفا بحاجة الى ان نندهش عندما نجد ان تاريخ حالة نفسية يتجسد كجزء من المناقشة الفلسفية .

وثمة مشكلة ثانية خاصة بالمعنى mean-problem تتمثل في شخصية برويه الشيوعي . فبينما نجد دانيال يبحث بوعي ذاتي عصابي عن صورة من صور التحقق الواقعي لا يتغير مضمونها ابدا ، نجد برويه يوحد نفسه بدون تفكير مع مشروع شخصي وحيد . فخلال الجزءين الاولين ومعظم الجزء الثالث نجد برويه مثال عضو الحزب

وكانها فترات من الراحة ، ذلك ان انفعالا صادقا يضم اجزاء العصه صما يرم سمها ، ولم يعد الوعي الداني بطنها ذا نتيجة انصايبه ، انزاله وبارده .

بين سرار مانيو العجاي بان يضم الى جماعه المعاومين السريه وبين اندروب النهايه وهو في برج الجرس ، يجد البصل وقما بافيا بان يسأل نفسه اكثر من سوال عندهما بان يسر الى اسفل سو البار حيث يوجد زملاوه الجبناء محمورين . الا ينبغي ان يكون هناك في الاسفل ولا يكون هنا في اعالي ، . « سل امك الحق في ان احلى عن اصدفني ، من امك الحق في ان اموت من اجل لا شيء » وبينما هو يطلق الرصاص من البرج تنبثق في ذهنه لحظه احيره من التجري مسيره وموضحه . « انه يقترب من السور وبدا في اطلاق الرصاص وهو واقف . لقد كان عقابا عطيما ، ذلك ان كل طعمه ، كان يطلقها تارت له من وسواس سابق . . لقد اطلق الرصاص على الانسان ، وعلى الفضيله ، وعلى العالم . نعم ان الحرية هي الرعب » . ولا شك ان المؤلف هو الذي يكلم هنا . فسارتر نجده في هذا التحطيم الرمزي واللامستول « للوحات » يدفع نفسه بحماس مساو عندما يدفع بطله الى هلاك لا معنى له .

بينما مانيو موجود في البرج يوجد برونيه في البار . كان مانيو في شك مقيم ، ويدفع نفسه الى التهلكه بدون سبب معقول . اما برونيه فم يورفه الشب ابدا ، ويدرب نفسه على القيام باعمال في المستقبل . يظهر في سجن المعتكر بصورة هزليه لحزب استبدادي ، ويظل هكذا حتى وقت مقابله لشنيدر . هذا الشخص الغامض ، الكريم والشكاك هو الذي انتقد اتجاه برونيه العملي نحو اخوانه ، وانتقد ايضا تسليمه الاعمى بحط سير الحزب . يبدأ الجزء الرابع من « دروب الحرية » بالكشف عن شخصية شنيدر كعضو مخلوع وغير موثوق به من الحزب ، ويبدأ ايضا بالحط من شأن التأويل الذي يقدمه برونيه لسياسة الحزب . ثم يعترف الصديقان ويحاول برونيه ان يفسد عمله ويعطله ، لكنه الان ممتلىء بالشكوك ، ذلك انه يبدأ للمرة الاولى في اعتناق افكار لا تنتمي الى الحزب . ويبدأ في رؤية الحزب من الخارج . لنفرض ان اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية قد اشترك في حرب ثم هزم ؟ لنفرض ان الحزب على خطأ ؟ « اذا كان الحزب صادقا فانا اكثر توحدا من المجنون ، وان كان خاطئا فكل الناس هم المتوحدون والعالم قد اكتمل » . يحاول برونيه أخيرا الهرب مع شنيدر ، ولكن يكتشف أمرهما ويلقى شنيدر مصرعه باطلاق الرصاص عليه . يقول برونيه : « ليس هناك نصر انساني يقدر على محو هذه الذروة العاليا من المعاناة . لقد قتله الحزب ، لكن حتى لو انتصر اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، فالناس متوحدون أحرار » .

الكتاب مناقشة بتدبىء باستخدام متبادل بين رمزية محكمة وتحليل ظاهر . يبدأ الكتاب بمقابلة مانيو لشحاذ مخمور ينوي الذهاب الى اسبانيا لكنه لن يذهب اليها اطلاقا . يتذكره مانيو في نهاية الجزء الاول ، لقد نوى مانيو ايضا ان يذهب الى اسبانيا وان يضم للحزب الشيوعي وان يتزوج مارسيل . ان نوع الفعل الذي يستطيع مانيو ان يقوم به متمثل في غرسه السكين في يديه ، ذلك الفعل الذي يتذكره أخيرا عندما كان في البرج . وقفزة تيبو الى الموت من عربة القطار (وهو شخص قتله الحزب ايضا) تصور مصرع شنيدر ، وتعطي برونيه المذاق الاول لما لا يمكن استرداده . مهما يكن من شيء فالتحليل مهم جدا . ونحن

نشعر ان ما قاله سارتر لنا .كوم في فصول مطولة متن التأمل الاستبطاني ، فالشخصيات (وبصفة خاصة دانيال وماتيو) تصبح شفافة بالنسبة لنا ، وتأملاتهم العقلية الباردة تهمننا وتصدم شعورنا . اننا مثل مارسيل نبدأ في ان نهفو الى ركن ظليل ناوي اليه . وكثير جدا من العصه منظم من قبل في وعي الشخصيات الاساسية بحيث اننا نبدأ بدورنا في معرفه ما الذي نتوقعه من كل شخصية منها . ان تأملاتهم بدلا من ان نعمل احساسنا بتشخصهم وتعقدهم فانها تدفعهم الى الهيكل العاري للمشكلة التي يجسدونها .

في علاقات الشخصيات بعضها مع بعض يبدو انه لا توجد بعبء وسطي بين استبصار المحلل وكوبه في حالة من الضياع تامه ، فماتيو ودانيال يلاحظ لل منهما الآخر بحدّة فنيه ، وماتيو في علاقاته مع مارسيل وحتى مع ايفيش بصفة خاصة ، بجده مرتبكا بالكلية . ومع كل الدفه التي تتميز بها تحليلاته لوعينا بالآخرين ، والتي فدھما سارتر في « الوجود والعدم » فان « الآخر » في « دروب الحرية » يظهر ودانه اما حالة نفسية او سر مستغلق . فبوريس وايفيش أخ وأخت يمثلان قيمة يستشعر ازاءها الابطال (ومؤلفهم) بالتردد والحيرة ، لكنها قيمة لا يستطيعون الالتزام بها او على اكتشافها .

ايفيش عبارة عن لوم حي موجه الى مانيو . لم يستطع (والمرء يشعر انه هو المؤلف) ان يفهمها ، ذلك ان القيمة التي تمثلها ايفيش هي قيمة السر ، قيمة الداخلي والفوري واللامعقول ، بحيث ان ماتيو يستشعر امامها الارتباك والحيرة . ان الشخص الآخر يتحول الى لغز يثير الانزعاج في حالة انعدام أي اتصال حقيقي بين الاشخاص . لكن عزلة ماتيو وهي تلك الدراما التي نقبلها في علاقته مع ايفيش ، تبدو وكأنها امر عرضي او امر لا يكترب به ، من جانب المؤلف ، في حين تكون علاقاته مع مارسيل موضع اهتمام (اهتمام المؤلف) . فماتيو مشاهد كأنه يتقاب بين الانغماس العنيد في الاحداث وبين ومضات جريته ، تلك الحرية التي يصورها كأنها مزيج من النعمة والنقمة ، والتي أمرته ببساطة ان يتخلى عن مارسيل ، لم يهتم سارتر برؤية العلاقة بين ماتيو وعشيقته ، ذلك ان ما يهمه ويهم مانيو ايضا ليس هو مازق مارسيل على الاطلاق ، بل مشكلة متصورة تصورا مجردا حيث يكون مازق مارسيل مناسبة لهذه المشكلة .

يمر سارتر مرا سريعا على تعقيد عالم العلاقات الانسانية العادية ، الذي ما هو الا عالم الفضائل الاخلاقية العادية ايضا . يلاحظ اورست في « الذباب » ان « الحياة الانسانية تبدأ في الجانب الآخر من اليأس » . انها تبدأ بالتجربة العادية للتأمل المتحرر ، عندئذ فان الكل يكون ايمانا زائفا . والفضيلة الاولى هي الاخلاص . نشعر دائما في « دروب الحرية » بالنقلة العنيفة من العمى الكلي الى الحرية الكلية ، ومن صمت اللاعقل الى ضحيج التأمل الفارغ والمزعج . الحياة الانسانية تبدأ ، لكن تعقيد الفضائل الاخلاقية ، الذي لا بد وان يعود اكثر عمقا من حيث فهمه فهما عقليا ، وذلك عن طريق « الاستمرار في السير الى الامام من هناك » ، أقول ان تعقيد الفضائل الاخلاقية لم نشاهده في « دروب الحرية » ، ذلك ان سارتر يصعد بأبطاله الى نقطة الاستبصار والتحقيق واليأس ، وهناك يتركهم . قد ينقلون الى الورا لكنهم لا يعرفون كيف يستمرون الى الامام . توجد تلميح واحدة فقط تشير

